مجلة آفاق علمية ISSN: 1112-9336
المجلد: 16 العدد: 01 السنة 2024 ص 139 - 157

تاريخ الإرسال: 2022/01/30 تاريخ القبول: 2024/04/10
تاريخ النشر: 2024/05/16

مشكلة المفهومية عند مالك بن نبي
The conceptual problem of malek ben Nabi

بوغالم جمال [1]
جامعة الشلف (الجزائر)، d.boughalem@univ-chlef.dz

الملخص:

تتناول هذه الورقة البحثية مشكلة المفهومية أو الايديولوجيا عند مالك بن نبي باعتبارها ميدانا للصراع الفكري، وديناميو الاقلاع الحضاري لكل أمة. إذ من الضروري أن تنظم النشاطات الفردية في كنف نشاط مشترك تؤطره ثلاثية: التوتر والدافعية، الاندماج والتكتل، ثم الوجهة والهدف. ويكون النظر للمفهومية من زاوية عالمية حيث أصبح الصراع مفهوميا تؤطره جبهات ثلاث (الديمقراطية، الاشتراكية، وجبهة السلام) وزاوية ثانية قطرية محلية تثار على مستوى الأوطان تنظم الحياة داخل الكيان الاجتماعي مثلما ينظم التنفس الحياة داخل الكيان الفردي.

وما خلصنا إليه أن المفهومية على الرغم من أن محورها العالمي شهد تحولا في عصر العولمة الاقتصادية والسياسية، فإنها تبقى تصورا مسبقا ضروري لتوجيه الأفراد نحو بناء نسيج العلاقات الاجتماعية المشتركة التي تؤسس لمشروع حضاري متكامل قادر على تحقيق متطلبات العصر ومواجهة تحدياته.

الكلمات المفتاحية: الحضارة، الصراع الفكري، الوجهة، المفهومية، الاندماج، الدافعية

Abstract :

This research paper deals with the problem of ideology for Malek Ben nabi as a field of intellectual conflict And the dynamo of civilizational takeoff for every nation. Individual activities should be organized into a group activity that is framed by: motivation, inclusion, and destination.

The ideology can be viewed from a global angle and the struggle between three fronts (democracy, socialism, and the peace front) and a local angle at the national level.

Ideology, although its global axis has undergone a shift in the era of economic and political globalization, it remains a preconceived notion necessary to direct individuals towards weaving common social relations that establish a civilized project capable of achieving the requirements of the age and facing its challenges.

Keywords: Civilization; conflict; Intellectual; Destination; ideology Integration; Motivation

---

المؤلف المرسل: بوغالم جمال، الإيميل: d.boughalem@univ-chlef.dz

1.مقدمة:

تعتبر مشكلة الحضارة بؤرة التفكير عند مالك بن نبي، فجل كتاباته لم تخرج عن نطاق البحث في شروط قيامها، وأسباب زوالها، انطلاقا من شروط النهضة إلى مشكلة الأفكار في العالم الاسلامي. وفي تنظيره لأسس البناء الحضاري رسم بن نبي سلما تطوريا لعوالم ثلاث، عالم الأشياء، عالم الأشخاص وعالم الأفكار، ويؤسس هذا التقسيم لأمرين أولهما: أن حقيقة حضور العوالم الثلاث في وعي الإنسان بصورة

دائمة ومؤثرة تختلف بحسب العالم المسيطر، وثانيهما: أن مثال الترقي بين عالم وآخر في عمر الإنسان إنما هو حال المجتمعات والحضارات إذ تترقى من عالم الأشياء إلى الأشخاص إلى الأفكار.

وفي سياق حديثه عن عالم الأفكار وخواصه، يذكر بن نبي خاصيتي الأصالة والفعالية. وأصالة الفكرة أن تكون نابعة من المجتمع ومعبرة عنه، أما فعاليتها فهي مرتبطة بسياقها التاريخي، من حيث تطبيقها واحتضان الناس لها. بمعنى أن لكل فكرة فترة فعالية تبدأ مع لحظة تأثيرها في المجتمع وتنتهي بأفولها وعدم فعالية فكرة ما ليس دليلا على عدم أصالتها. وعدم التمييز بين الحالتين قد يؤدي في مجتمعاتنا المهوسة بهم الرقي والتقدم إلى البحث عن أفكار أخرى قد تبدو فعالة في بعض المجتمعات ومحاولة استيرادها وزرعها في بيئتنا، ولا يخفى ما قد يترتب عن هذا المسلك من آثار مدمرة على المجتمع نتيجة إهمال عدم توافق هذه الأفكار مع هويته وثقافته. ويشبه بن نبي هذا الافتتان بالأفكار الفعالة في مجتمعات أخرى ومحاولة الانفتاح الكامل عليها واستيرادها بلا ضوابط بالجيش الخائن الذي يسلم القلعة للمهاجمين.

إن تضارب الأفكار وفقدان الحكمة في رسم الأولويات وفق الإمكانيات وعدم التّشبث بخطّ سير واضح يعبّر عن تطلّعات شعوب البلاد المستعمرة يدفع إلى القلق والتوجس على المجتمع الجزائري واستقلاله الذي خرج لتوه من سيطرة استعمار استيطاني، لذلك يدعو بن نبي إلى تحديد مفهومية للمجتمع الجزائري من خلال مراجعة منظومته العقلية السائرة في طور البناء مراجعة موضوعية، وكذا مراجعة برامجه الجديدة لبناء الأمة الجزائرية بناء صحيحا. وقد اقتبس عبارة مفهومية أول رئيس للجزائر المستقلة في خطابه للطلبة الجزائريين قائلا: "إننا نمتلك برنامجا، ولكننا لا نمتلك مفهومية (ايديولوجية) وعلق بن نبي على ذلك قائلا: ومع تصريح الرئيس

بن بلة نجتاز على وجه الدقة خطوة حاسمة، فبعد أن اجتزنا بصورة لا هي بالحسنة ولا هي بالرديئة، الطور الذي تمثل فيه الأشياء لدينا مقياسا لجميع المعطيات، ننتقل اليوم إلى الطور الذي تتحول فيه مراكز اهتمامنا من عالم الأشخاص إلى عالم الأفكار، وإذن نحن نخرج من البوليتيك (دجالو السياسة) إلى السياسة، ولكن مع امتلاكنا لبرنامج وافتقادنا للمفهومية"[1] وتأتي هذه الدراسة كمحاولة لتحديد معنى المفهومية والوقوف على آليات اشتغالها وعلاقتها بالصراع الفكري من منظور مالك بن نبي من خلال الإشكالية البحثية التالية: إذا كانت المفهومية عند مالك بن نبي منطلق لكل بناء حضاري، فما هو مفهومها؟ وما علاقتها بالصراع الفكري؟

2. في مفهوم المفهومية

تناول مالك بن نبي مسألة المفهومية بشيء من التفصيل في محاضرة عنوانها في الايديولوجيا ألقاها أمام طلبة المدرسة العسكرية بأشهر قبل رحيله وترجمها الكاتب محمد بغداد باي إلى العربية، واستخدام مصطلح المفهومية يراد منه رفع الالتباس في استخدامات معاني الايديولوجيا، خاصة في سياق تاريخي معين عندما حرف المصطلح واكتسى حمولة سلبية تجعل منه قناعا يغطي الواقع ويزيف الحقيقة باعتباره تأملات لا واقعية تناقض الحقائق، وتقابل معاني الدونية والتفاهة «ودرج الاستعمال على تسمية أي تفكير باسم إيديولوجيا حين يجيء هذا التفكير تافها وعديم الشأن، على اعتبار أن المحك الأوحد لقياس قيمة الفكرة هو النشاط العملي"[2]

إن الاستقصاء القاموسي يبين أن استخدام هذا المصطلح في بداياته الأولى دل على علم الأفكار، وهو ما أشار إليه الفيلسوف الفرنسي أنطوان دستوت دي تراسي في كتابه تخطيط لعناصر الايديولوجيا سنة 1801. بمعنى أنها العلم الذي يدرس الأفكار دراسة علمية بحتة وفق منهج علمي مضبوط ومحدد. وتشمل العلوم والآداب والفنون في مقابل الميتافيزيقا التي لا يمكن فهمها.

كما يقدم الفكر الفلسفي المعاصر دلالات ومعان جديدة للإيديولوجيا يضفي عليها أهمية ومكانة خاصة مع الفيلسوف بول ريكور، الذي يعطيها بعدا رمزيا. فهي إحدى أشكال الخيال الاجتماعي مثل اليوتوبيا والقصص والأساطير التي تدخل ضمن ثقافة معينة، وهو ينظر إليها بوصفها اندماجا أو هوية، وهي مرحلة تصل بنا إلى مستوى الترميز"[3] يعني أنها إطار مفهومي لا هو سببي ولا هو بنيوي ولا حتى حركي ولكنه ابتداء سيميائي. ولا يبتعد الانثروبولوجي الأمريكي كليفورد غريتز عن المعنى نفسه إذ يعتبر الأيديولوجيا بنية رمزية متأصلة في ثقافة المجتمع، وهي مظهر رمزي لتفسير وتأويل الفعل الاجتماعي وفهم الذات، وأداة للدفاع عن كينونة المجتمع واستمراره. لكن ماذا عن توظيف بن نبي لمفهوم الإيديولوجيا أو المفهومية؟

ترتبط مشكلة المفهومية عند بن نبي ارتباطا مباشرا بالمثابرات الفكرية الأصيلة في فكره وكتاباته، فهي ضرورة من تنظيم معين وليست لعبة يتسلى بها العقل. فإذا كان التنفس ينظم الحياة داخل الكيان الفردي فإن المفهومية أو الإيديولوجيا تنظم الحياة داخل الكيان الاجتماعي. وينظر بن نبي إلى المفهومية من جهة عالمية، باعتبارها جزءا من ظاهرة القرن العشرين. بالرغم من أنها لم تحقق بعد شروط وحدتها داخل العالم. وتربط فكرة المفهومية في إطارها العالمي بمحاور ثلاثة أساسية هي: الديمقراطية والاشتراكية والسلام. وهي المحاور التي كانت تشكل الوعي البشري العام خلال هذه الفترة. فهي " تصوّر مقدما عناصر دستور شامل، وتكوّن منذ الآن مبادئ مفهومية عالمية، لكي تَتوج عمل الإنسان وهو ينخرط في العهد العالمي"[4] إن جبهة الديمقراطية، تمثل الفكر الليبرالي الغربي، أما جبهة الاشتراكية فهي تمثل المعسكر الشرقي، أما جبهة السلام فقد جمعت أركانها في باندونغ وتمثلها دول عدم الانحياز.

كما تثار مشكلة المفهومية على مستوى البلدان والأوطان ففي" داخل كل بلاد فرضت فيها شروطها الخاصة ضمن طور معين من أطوار تاريخها، أنماطا من العمل الجماعي، أعني حيث يطرد تأثير الشروط الفنية لنشاط

1.2 عناصر المفهومية:

يحدد مالك بن نبي للمفهومية عناصر ثلاثة في توليفة مترابطة ومتناغمة وهي:

أ. **التوتر أو الدافعية:** يعتبر بن نبي التوتر شرطا أوليا لكل طموح مجتمعي حضاري يريد أن يتجسد إذ "بات من الواضح بأن درجة التوتر هي التي ستحدد فعالية كل الحركات، سواء تلك التي خضعت إلى تصميم مسبق أو تلك التي لم تخضع "[5] ومثلما اعتاد بن نبي في أسلوبه يلجأ إلى استخدام المفاهيم العلمية للإيضاح والتدليل فالتوتر الكهربائي الناقص لا يقوى على إضاءة المصباح لأن ضوء المصباح يتطلب شدة معينة من التيار الأمر نفسه ينطبق على الظاهرة الاجتماعية فإذا كان " المجتمع ذاك ليس لديه التوتر المطلوب من أجل القيام بنشاط ما في ميدان معين من ميادين الإنتاج فبإرجاع الحجم إلى الوحدة فسنقول بأن هذا المجتمع ينتج أزيد أو أقل من ذاك إن الأمر يتعلق بالإنتاجية . فالمقارنة إذا تكون رياضية"[6] ويسقط بن نبي هذه المسألة على نكسة الجيوش العربية في حرب 67 ضد الكيان الإسرائيلي.

فالنكسة ليس مردها قوة السلاح بقدر ما تعود إلى عامل سيكولوجي وإيديولوجي أو نقص التوتر. فلغة الأرقام كانت تؤكد تفوق القوات العربية على القوات الإسرائيلية بريا وبحريا وجويا، لكن بعد خمسة أيام من المعركة حجبت النتائج الأرقام والسبب مفهومي وإيديولوجي، يرجعه بن نبي أساسا إلى نقص أو غياب التوتر الداخلي والوازع السيكولوجي لدى العسكري العربي. " لقد كان بالإمكان تبين النتائج من بعيد فبعض الإشارات كانت تدل صراحة على نقص في التوتر الداخلي"[7] إن وعي

وإدراك الخطر الذي يتربص بالعالم الإسلامي يولد لدينا حالة قلق وتوتر التي هي مصدر فعالية الفرد في التغيير وإصلاح الواقع. وهذه المسألة تؤكد حقيقة أولية مفادها أنه كلما توجه تفكير الفرد نحو مشكلات مجتمعه، وشعر بضرورة إصلاح الأوضاع القائمة واهتم لذلك بشكل أصبح يقلقه ويوتِّره، فإن ذلك هو بداية الطريق نحو الإصلاح والتغيير، فإن الشعور بالظلم مثلاً هو بداية الانفلات من الظلم، وهكذا.

وإذا أردنا أن نضع الفكرة في السياق العام لفكر مالك بن نبي نجد أن الشروط الثلاث لقيام نهضة ما (إنسان+ تراب+ وقت) لن تفضي الى قيامها دونما دافع محرك، أو عامل يمزج هذه العناصر، يحولها من حالة سكون الى حركة وقوة فعل في التاريخ، ويعبر عنه بن نبي بالفكرة الدينية فلما" يتحرك رجل الفطرة ويأخذ طريقه لكي يصبح رجل حضارة فإنه لا زاد له–كما بينا– سوى التراب والوقت وإرادته لتلك الحركة"[8] وكيفما كانت طبيعة هذه الفكرة الدينية مسيحية، إسلامية أو غيرهما، فالحضارة الناشئة عند المسيحيين والمسلمين، كانت تؤطرهما فكرة دينية تمنح النفس مبدأ الشعور، وتطبع الفرد بطابعها الخاص، وتدفع به نحو غايات سامية. وكلما انطفأ شعاع الدافعية وعوامل التحريك خَفَت وهج الحضارة وتحول مسارها من حالة قوة وتقدم الى حالة وهن وتراجع.

ب. الإدماج أو التناغم: الاندماج أو التكامل مكوْن أساسي ثان للمفهومية، يرتبط به أداء المجتمع وفعاليته فهي " تضع في حركية مجتمع ما ثقل ودرجة الفعالية. فعندما لا تتحقق هذه الحالة، (التجسيم= التأليف= التجميع) يكون المجتمع عندئذ في حالة اندماج ناقص"[9] إن الاندماج يقتضي انخراط النشاط الفردي ضمن النشاط الاجتماعي، وخنوس الأنا الذاتية وانسجامها مع المسار العام للمجتمع، لأن فاعلية الأفكار تخضع دوما لشبكة العلاقات. وفي تصفح أحداث التاريخ درس مستفاد ففي

«الماضي كانت البطولات تتمثل في جرأة فرد لا في ثورة شعب، وفي قوة رجل لا في تكاتف مجتمع، فلم تكن حوادثها تاريخا بل كانت قصصا ممتعة، ولم تكن صيحاتها صيحات شعب بأكمله، وإنما كانت مناجاة ضمير لصاحبه، لا يصل صداه إلى الضمائر الأخرى، فيوقظها من نومها العميق"[10] أي إنه لا يمكن أن نتصور عملا متجانسا من الأشخاص والأفكار والأشياء دون هذه العلاقات الضرورية. وكلما كانت شبكة العلاقات أوثق، كان العمل فعالا ومثمرا.

وتبرز الثقافة هنا كأداة ضرورية للتجميع والتركيب بأبعادها الأخلاقية والجمالية والعملية، والتي تشكل دستورا تتطلبه الحياة الجماعية في توليفة عجيبة تجمع بين راعي الغنم والعالم تحت مظلة دوافع مشتركة وأدوار متكاملة. وهي–الثقافة– بمنظور بن نبي بمثابة الدم في جسم المجتمع يغذي كيانه الحضاري والفكري متنقلا بين جميع أجزاءه وفئاته نخبة كانت أم عامة. ونستنتج مع بن نبي أن قوة المجتمع من قوة شبكة علاقاته الاجتماعية التي تتأتى من ترابط الأفراد فيما بينهم وتوجيه أنشطتهم المختلفة في اتجاه عام، وتنظيم طاقتهم الحيوية لتتيح لهم أداء نشاطهم المشترك، وهو ما يعبر عن حدث ميلاد مجتمع في التاريخ. ولما أدرك الاستعمار (مباشر وغير مباشر) أهمية النسيج الاجتماعي المتكامل والمتناغم في مواجهة دسائسه الاستعمارية، كانت أولى وظائفه العمل من خلال الاختصاصيين الذين يعملون لحساب الاستعمار أساتذة في ذلك الفن المطبق على الشبكات الاجتماعية، وعلى الطاقة الحيوية التي يملكها شعب، مستعمر فعلا، أو مهدد بمؤامرات الاستعمار"[11]

ج. الوجهة أو الهدف: لا يمكن للدافعية والاندماج أن تحققا أثرا إيجابيا ما لم تستكمل بشرط ثالث وهو التوجيه، الذي يحدد له بن نبي مفهوما بقوله: هو بصفة عامة قوة في الأساس وتوافق في السير ووحدة في الهدف"[12] أي هو عزف متناغم على إيقاع مشترك في المنطلق والأهداف المنشودة، وعلى قدر التناغم وجودة

التوجيه يكون النجاح، أما غياب التوجيه فهو يعكس خللا ثقافيا جسيما، تدفع فيه المجتمعات المتأهبة لبناء حضارة أثمان مكلفة يترجمها تعارض الأهداف والاسراف في الجهد والوقت وضياع الطاقات. فالفعل " يوجه صوب الهدف بطريقة مدروسة يكون له وقع أكبر من أن يوجه بطريقة عشوائية حتى وإن أصاب القصد. هذا في حالة إصابته طبعا. فقصف موجه مباشرة نحو الهدف ليس كقصف منحرف أو جانبي. على المجتمع إذن أن يحقق هذه الحالة الثالثة"[13] إن ما يترتب عن التوجيه ورسم الأهداف بدقة متناهية تحقيق التوافق في المسير والوحدة في الأهداف واقتصاد في الجهد والوقت.

وهو الفريضة الغائبة في واقعنا العربي والإسلامي عموما. فهو في نظر بن نبي خليط لم يصدر عن توجيه واع، أو تخطيط علمي، وإنما هو مجموعة من رواسب قديمة لم تصف من طابع القدم، ومستحدثات لم تتم تنقيتها. هذا التلفيق لعناصر من عصور مختلفة، ومن ثقافات متباينة، دون أدنى رباط طبيعي أو منطقي يربط بينها"[14] وينبهنا مالك بن نبي لمسألة في غاية الأهمية، إذ لا معنى لرسم الاهداف إذا لم يتم توجيها وفقا لمنطق عملي أو للمهمة الاجتماعية التي نسعى الى تحقيقها.

وهو مكمن الداء الذي يفتك بمجتمعاتنا العربية مع عالم الافكار ويمثله مفكرنا في شخصيتين مختلفتين: رجل عملي أدار ظهره للأفكار، وآخر مغرم بالأفكار إلى درجة الترف العقلي قاطع للوصال مع دروب النشاط الاجتماعي، حيث تتكدس الأفكار لكن دون أدنى فاعلية عملية. وكلا المثالين يمثل حالة عطالة وشلل في سلم البناء الحضاري. فلا بد من إقرار توازن بين منطق الفكر ومنطق العمل في رسم خطة الأهداف وتوجيهها.

وكمثال على رسم الأهداف وتوجيهها بمنطق يزاوج بين النظر والعمل يستشهد بن نبي بالثورة الجزائرية، التي حققت هدفها الأسمى وهو الاستقلال قائلا " وقد أتيح لنا

في الجزائر أن نلاحظ النشاط الفردي والنشاط المشترك في فسحة زمنية قصيرة نسبيا، ضمن مرحلتين مختلفتين: طوال الثورة، وبعدها. فقد اقتادت الثورة الجميع إلى نشاط جماعي مسلح انخرط ضمنه كل فرد بنشاطه الخاص. وفي سنة 1962 حدث كما لو أن الثورة قد استلت شعلتها من نشاط الفرد، فنحن لكي نضطلع بالعمل على المستوى الوطني، وهو العمل الذي يقتضيه بناء حضارة، وتستدعيه مهام ثقافة، نظل نفتقد (صامولة) بالفعل "[15] إن الجزائريين رسموا بطولات المجد بثورتهم لما كانت هذه الثورة محكومة بهدف ووجهة بسيطة وواضحة وهي الاستقلال، إنها الفكرة التي أحدثت توترا شكل الباعث أو الدافع لنشاط مسلح مشترك التحمت فيه الجهود الفردية التحاما منظما.

لكن بعد الاستقلال تراجعت جذوة التلاحم الجماعي لصالح النزعات الفردية في ظل غياب هدف أو وجهة تجميعية جديدة تكون حافزا لنشاط مشترك ومنظم في الوقت الذي لم تعد فيه المعايير المعتادة قادرة على تحقيق ذلك. إن جزائر الثورة نجحت في تحقيق استقلالها بفضل المفهومية أما جزائر الاستقلال فهي أمام تحد جديد يتمثل في إيجاد مفهومية لجزائر الاستقلال، التي شهدت حسب بن نبي فراغا مفاهيميا أو غياب لدوافع معللة لنشاط مشترك، وأبلغ صور الغياب تعكسها السلوكيات الفردية اللامسؤولة كعدم مراعاة النظام بدعوى أننا خرجنا من وطأة الاستعمار. إن معركة بناء جزائر الاستقلال يقتضي " تصفية راسب العسف المتخلف عن العهد الاستعماري، ومجموع ضروب العطالة التي ندين بها إلى القابلية للاستعمار[16] إن الخروج من ضروب العطالة يقتضي إعادة تحيين الأهداف ليس اعتباطيا وإنما وفق خطة مدروسة تراعي الواقع المستجد وبما يتوافق مع المرحلة الجديدة ووضع المشكلات الجديدة ضمن تحديدات جديدة كذلك.

3. المفهومية والصراع الفكري

إن المفهومية كمركب ثلاثي ترتبط بعلاقة وطيدة مع الصراع الفكري كشكل من أشكال الحرب التي لا تكتسي طابعا ملموسا ولا رائحة للبارود فيها، وهذا يجعلنا أمام مشكلتين: الأولى تتضمن كيف ننشئ أفكارا فعالة في مجتمعنا. والثانية يؤطرها التساؤل التالي: كيف يجب أن نفهم أسلوب الاستعمار في الصراع الفكري؟

1.3 في مفهوم الصراع الفكري:

إن الاستعمار الحديث تخلى عن استخدام أساليب الصراع التقليدية وانتقل إلى أساليب حديثة أكثر خبثا وأشد وطأة على البلاد المستعمرة. إذ "يجب ألا يبقى عندنا شك في أن الخصوم الذين يتنافسون، على محور واشنطن–موسكو، للاستيلاء على عناصر القوة، سيلجئون إلى سلاح الأفكار، حيث أن قنابلهم الذرية أصبحت عاجزة في المستقبل عن حل مشكلاتهم المعلقة"[17] والصراع الفكري بهذا المعنى، صراع قوامه حرب ضد فكرة مجردة وبوسائل ملائمة يتم فيها الاستعانة بخريطة نفسية للعالم الإسلامي يخططها متخصصو رصد الأفكار بهدف " تحديد العمل المناسب لمواجهة الوعي في تلك البلاد حسب مختلف مستوياته وطبقاته. إنه يستخدم لغة " الفكرة المتجسدة في مستوى الطبقة المثقفة، فيقدم للمثقفين شعارات سياسية تسد منافذ إدراكهم إزاء الفكرة المجردة"[18] وما يلجأ إليه خبراء الصراع الفكري هو الاستعانة بالنتائج التي توصل إليها علم النفس في مخابر متخصصة لإدارة الصراع يستطيع من خلالها تحويل سلوك الأفراد لآلية منبه واستجابة كما حددها بافلوف. ويؤكد بن نبي أن أجهزة الاستعمار لرصدِ الأفكار، موجودة في البلاد المستعمَرة وهي على اتصال دائم بمراكز الصراع الفكري في بلد المستعمِر، ووظيفة هذه الأجهزة الرصد والتقاط أي معلومة عن نشاط فكري لنقله إلى مركز الصراع الفكري لتدبير شأنه والتخلص منه، فعندما "يطرح مسلم أو بعض المسلمين مشكلة ما تهم مجتمعهم، فإن هذه المشكلة تكون قد طُرحت أو ستطرح عاجلاً في أوساط المتخصصين في هذه

الدراسات لحساب، وتحت إشراف الاستعمار. وكلما يتقدم هذا المفكر المسلم أو هؤلاء المسلمون بحل لهذه المشكلة يسرع من طرفهم أولئك الأخصائيون لدراسة هذا الحل، فإن كان خاطئاً، زادوا في شحنة خطئه بطريقة أو أخرى، وإن كان فيه بعض ما يفيد حاولوا كل جهدهم للتقليل من شأنه، وتخفيض قيمته حتى لا يفيد"[19]

2.3 المستشرقون والصراع الفكري:

يمثل الاستشراق حلقة هامة في رحى الصراع الفكري والمفهومي عند مالك بن نبي إن لم يكن الحلقة الأبرز والأخطر. ولذا يبدو من القصور لدى الدارسين لدوافع الصراع وأدواته ونتائجه إغفال دراسته كظاهرة تتجاوز حدوده المعرفية إلى محاولة فهمه "كظاهرة ثقافية لا يمكن فهم حركتها وتفسير تناقضاتها إلا في إطار نظرة شمولية تستوعب الحركة الثقافية والفكرية في إطار انسجامها وتعبيرها عن مواقف نفسية متراكمة في موطن الوعي الذاتي للإنسان"[20] وإذا كان الاستشراق في منبته الأول حركة فكرية نحو الشرق، لطلب علومه والتخصص فيها والالمام بحضارته وفنونه وآثاره، والذي أبان عن اتجاهات استشراقية متعارضة المواقف اتجاه الشرق وحضارته، منها المادحة وأخرى قادحة تصل أحيانا الى درجة التشويه، فإنه سرعان ما تحول في مرحلة تاريخية معينة إلى أداة يمهد الأرضية الصالحة للاستعمار السياسي والاقتصادي والثقافي لشعوب الشرق بصفة عامة"[21] وإذا كانت المواقف القادحة للمستشرقين تعبر عن موقف صريح من الشرق وحضارته، فإن المواقف المادحة لحضارتنا لا تقل خطورة وخبثا. فهي في نظر بن نبي وسيلة إلهاء وتخدير تشغلنا عن أمهات مشكلاتنا الحضارية، والزج بنا في مشكلات وهمية عبثية تفضي الى افلاس مجتمعي وحضاري. ويقدم لنا صاحب شروط النهضة مشهدا من مشاهد التخدير والالهاء التي يمارسها خبراء الحرب الفكرية ويتقبلها مجتمعنا بكل شغف وسرور. ففي مؤتمر للعمال الجزائريين بأوروبا الذي انعقد بباريس عمد منظموه الى

توزيع كتيب يوجه انظار الحاضرين نحو قضايا ومشكلات راهنة يعيشها الجزائريون فما كان من خبراء الصراع إلا العمل على توجيه الأنظار نحو وجهة أخرى، تصرفهم عن واقعهم الحقيقي. وتم توجيه الدعوة الى المستشرقة الألمانية زيغريد هونكة صاحبة " ذلك الكتاب ذي العنوان الجذاب " شمس الله تسطع على الغرب" وفيه ما فيه من مدح وتمجيد الحضارة الإسلامية. وتقدمت السيدة، وقدمت كتابها الى المؤتمر، فانتقل على الفور بروحه من مجال المشكلات الحادة القائمة اليوم، إلى أبهة وأمجاد الماضي الخلاب...ولا شك أن القصة تكشف عن جانبين: الجانب الذي يبرز حساسية الجماهير المسلمة لأمجاد ماضيها، والجانب الذي يكشف عن امكان استغلال هذه الحساسية لإلفات تلك الجماهير عن حاضرها"[22] إن هذه الواقعة على بساطتها تبرز وبشكل جلي حرص مخابر الصراع الفكري على تتبع أدق التفاصيل كلما تعلق الأمر بتأمل مشكلاتنا والسعي نحو تقديم حلول لها. إنه يبذل قصارى جهده لتفويت كل فرصة ممكنة، مستغلا لكل المساحات والهوامش: تربوية، إعلامية، وسياسية. بل امتدت أساليب الاستشراق الى توظيف من تتلمذوا على مناهجه وافتتنوا بأفكاره من بني جلدتنا. إن بعضا من تلامذة الاستشراق "يخفون عملهم التخريبي ضد الإسلام، بإيعاز واضح من أوساط استعمارية، تحت رداء تقدمية جوفاء تحاول سلب الإسلام من كل قيمة حضارية، بل تنسب له حالة التخلف الراهنة في العالم الإسلامي"[23]

وفي هذا السياق يسلط بن نبي مجهر الفحص النقدي على ما أورده المفكر المغربي عبد الله العروي في كتابه الأيديولوجيات العربية المعاصرة، والذي قدم له المستشرق الفرنسي مكسيم رودنسون. فهو يعتبر هذا الكتاب وما اشتمل عليه من أفكار يتأسس على منطق سفسطائي غير سوي، وهو بذلك لا يقدم حلولا لمشكلاتنا الحضارية، بل أنصاف حلول لأنصاف مشكلات، ولا يختلف هذا العمل عن نهج

المستشرقين في صرف الشعوب عن قضاياها الجوهرية وتضييع طاقاتها وجهودها في صراعات فكرية جوفاء، وإشغالها عن تحديد معالم مفهوميتها، ورسم مسارها الصحيح لبناء حضارتها. ويقيم بن نبي مقارنة بين ما أنتجه مفكرو الغرب في مرحلة التأسيس للإقلاع الحضاري من خلال أعمال لوثر وكالفان ومآثر ديكارت، وماركس وغيرهم ومدى إسهامهم في وضع قاطرة الحضارة الغربية على سكتها الصحيحة، وبين منجزات مفكري العرب والمسلمين، خاصة ممن تأثروا بمدرسة الاستشراق الذي لم ينتج إلا " بعض الصواريخ الأدبية الخلابة في تلك المؤلفات الجميلة التي لم يبق لها أي أثر مثل كتاب "روح الإسلام للسيد أمير علي"[24] فالفرق ها هنا شاسع في الأهداف والنتائج.

وفي سياق تحليله لموقف المستشرقين من الحضارة العربية والإسلامية وفضلها في التأسيس للعلم الحديث، ينبه بن نبي الى الحذر من الوقوع في مطب ردود الأفعال السطحية وتناول المشكلة بصورة خاطئة، كتلك المواقف التي جعلت من القران الكريم كتابا في الجيولوجيا والأحياء والفلك والفيزياء. وبذلك يتحول مسار الصراع نحو قضايا جزئية تبدد الطاقات وتشتت الجهود، لتضيع معها معالم المفهومية المؤطرة لكل بناء حضاري. لذا يدعو مالك الى تبني منهجية جديدة في التعامل مع انتاج المستشرقين وموقفهم من الإسلام سواء المادحين منهم أم القادحين ويكون ذلك بإعادة صياغة إشكالية العلاقة بين الإسلام والعلم. وطرحها بصورة جديدة تتماشى أكثر مع سمو الدين ومنطق العلم. فنتساءل: هل في روح القرآن ما يعطل حركة العلم أم فيه ما يشجعه وينميه؟ حيث يجب " أن نتساءل إذا ما كان يستطيع القرآن أن يخلق في مجتمع ما المناخ المناسب للروح العلمي، وأن يطلق فيه الأجهزة النفسية الضرورية لتقبل العلم من ناحية ولتبليغه من ناحية أخرى"[25] أي يتم النظر الى المشكلة من جانبها النفسي والاجتماعي وليس من جانب تاريخ تطور

العلم. وتماشيا مع هذا المسلك الجديد، يضرب لنا بن نبي مثلا للعبقرية الإسلامية العلمية الإبداعية بما هيأ لها القرآن من عوامل نفسية واجتماعية محفزة ودافعة لكل ابتكار. ويمثل النظام العشري وعلم الجبر كابتكارين للحضارة العربية الإسلامية قاعدة لكل ابداع علمي وتكنولوجي لاحق. وهي حقيقة لا ينكرها إلا جاحد.

3.3 أدوات الصراع الفكري وأثرها في المفهومية

أفرد بن نبي لمسألة الصراع الفكري مؤلفا مستقلا عنونه بـ "الصراع الفكري في البلاد المستعمرة" والذي حوى بين دفتيه تنظيرا لتجربة خاصة تحاول أن تستخلص قوانين فرع معرفي جديد هو الصراع الفكري متقمصا جهاز الحرب النفسية بهدف فضح طرق العمل التي ينتهجها هذا الجهاز، وأساليبه في تحويل الأفكار عن مسارها، بمنعها من الوصول الى المجتمع أو تشويها وابطال فعاليتها، فتتحول من فكرة فعالة تنبض بالحياة توجه نحو العمل والتغيير إلى فكرة ميتة. ويذكر أنه أحصى بعضا من أساليب الصراع، لكن دون ادعاء حصر كامل لها، لأن حصرها جميعا يتطلب جيلين أو ثلاثة أجيال لتحقيق دراسة وافية حول الموضوع. ومن أساليب الاستعمار في معركة الصراع الفكري العمل على تشتيت وحدة الكفاح وتحويلها إلى معارك جزئية تمزق الالتفاف الشعبي حولها وتتحول المعركة إلى خلاف بين قوى المقاومة مما يفقدها قداستها في نظر الجماهير ويتراجع معها المستوى الروحي والايديولوجي (المفهومي) الذي كان يلفها. إن خبراء الصراع الفكري يستهدفون طموحات المجتمع وأهدافه لذلك يسعون إلى كبح توتره، وتحطيم اندماجه، ثم إبطال توجيهه، ويتسنى ذلك بخلق تعارض بين القوى المجتمعية. ويوضح مالك بن نبي بأن الأمر في حقيقته ما هو إلا صرف نظر وإلهاء للمجتمع عن قضاياه الجوهرية بأغاليط وادعاءات تسخر لها كل أساليب التظليل الفكري والإعلامي "إننا كلما طرحنا مشكلة وعرضنا لها حلاً من الحلول، فإن قادة الصراع الفكري يأتون على الفور بما

يلفت عنه الأبصار أو يزيفه تزييفاً. وما الحلول التي تعرض علينا في المجال السياسي، مثل البعثية، والبربرية، والأفريقية، والشيوعية– تلك الشيوعية التي يرعاها الاستعمار ويسهر على إنباتها في مدفأته –وما ذلك الأدب المطنِب في المدح والتمجيد لماضينا (من إنتاج المستشرقين) إلا وسائل إلفات في المجال السياسي أو في المجال الفكري حتى يلفت العالم الإسلامي عن أم مشكلاته، ألا وهي مشكلة حضارته، حتى يلفتوه عنها ويربطوا اهتمامه بمشكلات وهمية، ويلهوه بحلول وهمية" [26] وكلما وجد الاستعمار يقظة في ضمير الشعوب يعكسه استعداد وقابلية للتضحية بالوقت والمال والفكر لنهضة الأمة، فإنه يكلف اختصاصيين ليصوروا لنا معاركا وهمية دونكيشوتية تصرف المسؤولين في البلاد الإسلامية عن المشكلات الحقيقية، ولأدل على ذلك تلك المحاولات التي تشحذ الأفكار والأقلام وتخصص الأموال بهدف الدفاع عن الإسلام ضد خصومه ومناوئيه من المستشرقين، وهي ما يدخل أحيانا في مخططات الاستعمار ويرغب فيه. وهي مشاريع يسعد بها حينما يأتيه نبؤها إن لم نقل إنه أوحى من بعيد بفكرتها، لأنها سوف تصرف الأموال والأقلام والأفكار عن الأشياء الجدية، كما نشعر أيضاً أنه سوف يبدي قلقه، لو أن أحداً انفلت من تأثير سحره وحاول أن يقول أن المشكلة ليست في الدفاع عن الإسلام الذي يجد في جوهره حصانته من عطاء الله إليه، ولكن في تعليم المسلمين كيفية الدفاع عن أنفسهم بما في الإسلام من وسائل الدفاع"[27] إن آلية إدارة الاستعمار للمعركة هي خلق أفكار مناسبة له، يغذيها في وعي الشعوب والجماهير المستهدفة والخاضعة لمنطق القابلية للاستعمار. وهو ينوع ويعدد من أساليبه بحسب الظروف والمناسبات.

إن تحليل بن نبي لعلاقة الصراع الفكري بالمفهومية يضعنا أمام نتيجة مفادها أن تأمين البناء المفهومي للمجتمع أمام حرب فكرية لا مرئية تستهدف الأفكار يمر

عبر سنن التغيير الذاتي والاجتماعي الذي يتجاوز حالة التكديس والتقديس إلى لحظة العمل والإبداع، لكن مع وعي بالتحديات والرهانات الحاضرة والمستقبلية، والوقوف على الثغرات والفرص والحلول من موقع الفعل وليس رد الفعل. وكل عمل يجهل أو يتجاهل القوانين الأساسية للصراع الفكري وأساليبه لا يعتبر إلا ثرثرة عاطفية ولعبا بالألفاظ.

4.خاتمة:

نستنتج في خاتمة المقال أن المفهومية كضرورة حضارية في فكر بن نبي هي "الصوت" الهادي الذي يضبط إيقاع مجهود أمة معينة، فهي نداء للجماعة كي تتضافر جهودها لإنهاض الأمة. وهي العدة الضرورية لدخول معترك الحضارة. ثم أن المفهومية في جوهرها نظام وتنظيم للجهود الفردية ضمن نشاط جماعي مشترك يمتلك القدرة على تجميع المساهمات الفردية والدفع بها للانصياع إلى القاعدة والانضباط مع المعيار الضروري للعمل المشترك ضمن أهداف مرسومة. ولا ينفصل البناء المفهومي للمجتمع عن صراع الأفكار كحرب جديدة يفرضها الاستعمار يستهدف بها تقويض الأفكار الحية في المجتمع واستنبات الأفكار الميتة.

كما نستنتج مع بن نبي أن مشكلة المجتمع الجزائري المعاصر مشكلة " أفكار" وفراغ مفاهيمي أو غياب للمفهومية على مستوى النشاط المشترك للجماعة الوطنية. لذلك غدت الأمة الجزائرية بعد الاستقلال عاجزة على الحفاظ على مفهوميتها وفي شحذ الطاقات الفردية في مصهرة النشاط الجماعي الذي توجهه الفكرة. إن ميلاد المجتمع الجديد يكون وفق مفهومية محددة المعالم واضحة الوجهة أو الهدف الذي يجذب إليه مناشط الحياة ويمنحها المنطقية والانسجام. إن العمل المنسق للمجتمع هو جوهر حركة التاريخ واشتغال عداد الحضارة، وكلما ظهرت حركة منسقة بين

العوالم الثلاث، الأشخاص، الأشياء والأفكار فذلك دليل على أن مسيرة الحضارة قد بدأت فعلا لا قولا وفقط.

5.المراجع

[1]مالك، بن نبي، القضايا الكبرى، دار الفكر المعاصر، ص 96-97

[2]زكريا، إبراهيم، مشكلة الفلسفة، مكتبة مصر، ص 180

[3] ريكور، بول، محاضرات في الأيديولوجيا واليوتوبيا، دار الكتب الوطنية، 344

[4]مالك بن نبي، القضايا الكبرى، مرجع سابق، ص93

[5]مالك، بن نبي ، في الحضارة وفي الإيديولوجيا، نصوص غير معروفة، تر: محمد بغداد باي، عالم الأفكار، ص 71

[6]المصدر نفسه، ص 72

[7]المصدر نفسه، ص 74

[8]مالك بن نبي، شروط النهضة، تر: عبد الصبور شاهين، دار الفكر، 2021، ص60

[9]مالك، بن نبي، في الحضارة وفي الايديولوجيا، نصوص غير معروفة، مرجع سابق، ص 74-75

[10]مالك، بن نبي، شروط النهضة، مصدر سابق، ص 28

[11]مالك، بن نبي، ميلاد مجتمع، تر: عبد الصبور شهين، دار الفكر، 1986، ص 82

[12] مالك، بن نبي، مشكلة الثقافة، تر: عبد الصبور شاهين، دار الفكر، 2000، ص 67

[13]مالك، بن نبي، في الحضارة وفي الإيديولوجيا، نصوص غير معروفة، مصدر سابق، ص 74، 75

[14] مالك، بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، تر: عبد الصبور شاهين، دار الفكر، 1998، ص 77

[15]مالك، بن نبي، القضايا الكبرى، مصدر سابق، ص 95

[16] مالك، بن نبي، القضايا الكبرى، مصدر سابق، ص 105

[17] مالك، بن نبي، الصراع الفكري في البلاد المستعمرة، تر: عبد الصبور شاهين، دار الفكر، 2011، ص 18

[18] المصدر نفسه، ص17

[19] مالك، بن نبي، إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الاسلامي الحديث، دار الإرشاد، 1969، ص24

[20] محمد، فاروق النبهان، الاستشراق تعريفه مدارسه، آثاره، منشورات المنظمة الاسلامية للتربية والعلوم والثقافة، 2012، ص 7

[21] الحاج، ساسي سالم، نقد الخطاب الاستشراقي، دار المدار الاسلامي، 2002، ص 21

[22] مالك، بن نبي، إنتاج المستشرقين، مصدر سابق، ص 17

[23] المصدر نفسه، ص 23

[24] المصدر نفسه، ص 24

[25] المصدر نفسه، ص

[26] مالك، بن نبي، إنتاج المستشرقين، مصدر سابق، ص

[27] مالك، بن نبي، الصراع الفكري في البلاد المستعمرة/ مصدر سابق، ص 71، 72